بـــــــســــــــــــم اللـــــــه الرحمـــــــــــان الرحــــــــــيم.

اللغة والهوية: تحديات الثقافة الجديدة.

الدكتور عبد الله الحوزي

كلية الآداب جامعة ابن طفيل.

القنيطرة – المملكة المغربية --.

"الحرف يخدم اللغة واللغة تخدم الثقافة والثقافة تخدم المجتمع"[1].

عبد الله العروي.

أتقدم بداية بجزيل الشكر والامتنان لأعضاء المجلس الدولي للغة العربية، على دعوتهم الكريمة للمشاركة في المؤتمر الدولي الثالث، متمنيا التوفيق والنجاح إن شاء الله لهذا اللقاء العلمي .

لقد سبق لي المشاركة في المؤتمرين السابقين الأول الذي نظم ببيروت، بمداخلة تحت عنوان" علاقة اللغة العربية بالسيادة الوطنية والهوية: نحو بناء علاقة جديدة بين الذات والآخر " ثم ساهمت بمداخلة ثانية في المؤتمر الثاني ، تحمل عنوان " تحديات اللغة والهوية العربية في زمن العولمة – في الحاجة إلى بناء وتأصيل النظر العلمي".

وأعتبر مداخلتي الثالثة حلقة لتصور نظري عام، يقوم على سؤال اللغة والهوية، من خلال استثمار مستحدثات العولمة الثقافية، في مواجهة إشكالية المحافظة على هويتنا في عالم جديد، أضحى جغرافيا صغيرا في مساحته. يفرض على ذواتنا العربية الإسلامية انخراطا فاعلا في العالم الجديد، كمساهمين في بناء التاريخ المعاصر بمفهومه العام .

فالعولمة هي مولود طبيعي للحداثة الغربية، فرضها علينا الآخر، لكونها حسب شيخ الحداثة العربية محمد سبيلا:" نتيجة طبيعية لاعتبار العولمة بمثابة ذروة قصوى للحداثة، أو إنها الحداثة في عنفوانها وشراستها وقوتها"[2].

لقد سبق لي القول خلال مداخلتي في المؤتمر العلمي الثاني، أن الثورة الإبستيمولوجية التي شهدتها حقول العلوم الإنسانية من علم الإجتماع، وعلم النفس المعرفي، والأنتروبولوجيا، وعلم الأديان المقارن، قد أعادت النظر في بناء مفهوم الهوية ، من خلال الإنسان الجديد كمواطن كوني citoyen universel، [3]، ينتمي إلى جغرافية واحدة، لا تؤمن بالحدود، بمفهومها القديم، ولا بوجود الحواجز والموانع في التواصل بين الأفراد.

فالعنصر الفكري للثقافة المعلوماتية، ساهم بشكل قوي في إلغاء كل انغلاق على الذات، وفرض علينا انفتاحا رغم أنوفنا مع الآخر، نتقبله ويتقبلنا، رغم الاختلاف والتباين في اللغة واللون والدين.

إن الفعل السحري للثقافة الجديدة/ الثقافة التكنولوجية، عمل على تقليص الهوة بين الذات والآخر، وخلق لنا ارتياحا نفسيا ووجوديا، ولّد شعورا بغياب الفوارق اللغوية والدينية، ومنحنا بالتالي شحنة قوية للانخراط مع الآخر، في سياق هوية جديدة لها طابع كوني.

إن هذه الثقافة المعلوماتية الجديدة تمتلك فعلا شحنة سحرية وأسطورية تغذيها بشكل قوي سلطة الصورة Autorité de l’image، التي تمتلك عالم الأنترنت كوسيلة أساسية لتملّك هذه الثقافة الجديدة.

ساهمت الثورة التكنولوجية التي عرفها العالم في نهاية القرن الماضي بشكل كبير في هذا التطور والتغير الذي مسّ جميع مناحي الحياة، ويعتبر الانترنت من أبرز ملامح هذا التطور التكنولوجي.

وكما لا يخفى فإن الانترنت مثلما يحمل بعدا إيجابيا معرفيا، فإنه في المقابل يحمل بعدا سلبيا إذا أسيء استعماله، مما يحتم ضرورة المراقبة والمتابعة والتأطير، لأن المتعلم أصبح

في مواجهة مباشرة مع تقنيات حديثة ومتطورة . ومع قنوات متعددة تساهم في بناء أفكاره ورؤاه وبالتالي شخصيته المعرفية.

والأكيد أنه أصبح من الصعب على أولياء الأمور تتبع أطفالهم ومراقبة استخدامهم للأنترنت، وذلك لتعدد وسائطه (اللوحات الالكترونية، الهواتف الذكية، الحواسيب المحمولة...) وسهولة الولوج إليها.

لذلك في تقديري أن إيجابيات الشبكة العنكبوتية بالنسبة للناشئة تبقى محدودة الأثر ومحفوفة بالخطر إذا استعملت بطريقة غير صحيحة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالأطفال أو المراهقين لأن استعمالهم للأنترنت يبقى محصورا في :

_ ألعاب الفيديو.

_ مشاهدة المقاطع المصورة.

_ شبكات التواصل الإجتماعي.

مما يعطي نتائج فورية، تكمن في التأثير السلبي على دراساتهم وتحصيلهم العلمي، مع ميلهم إلى العزلة.

إن خطر الشبكة العنكبوتية يستدعي تضافر جهود أولياء الأمور من جهة والمدرسة من جهة ثانية. فدور الأسرة يرتكز على المراقبة والمتابعة من خلال مشاركتها لأبنائها والإشراف على أنشطتهم التعليمية والفكرية التي تحتاج إلى خدمات الأنترنت، لأن المتعلم وأمام وفرة المعلومات وتنوعها لن يستطيع معرفة مدى صحة ومصداقية المعلومات التي يرغب في الاستفادة منها.

أما المدرسة فيكمن دورها في توسيع نطاق استخدام تكنولوجيا المعلومات لما لها من فوائد كبيرة في تنشيط عمليات الإدراك والانتباه، وكذلك دفع المتعلمين لتوظيف الأنترنت بطرق إيجابية تسهم في الرفع من مستواهم المعرفي والفكري.

إن مداخلتي هذه تستحضر بقوة إشكالية نقل هاته الثقافة الجديدة من الغرب إلى عالمنا العربي والإسلامي ، وهذه الإشكالية تفتح نوافذ متعددة للسؤال عن عوائق هذا النقل، وبلغة أستاذنا المرحوم محمد عابد الجابري " المعوقات البنيوية " للتحولات السوسيولوجية للمجتمع العربي " وكما تهتم الأدبيات التكنولوجيا العربية بإبراز دور الغرب، وبكيفية خاصة شركاته المتعددة الجنسية، في عرقلة عملية النقل "النزيه" للتكنولوجيا إلى البلاد النامية، والحيلولة دون غرس جذورها فيها. تبرز نفس الأدبيات كذلك ، وبنفس الدرجة من القوة والإلحاح، المعوقات والعراقيل الداخلية التي تجعل عملية غرس التكنولوجيا في البلدان العربية تتطلب تحويلا شاملا للمجتمع وبنياته وتقاليده. ومن هذه المعوقات التي يقع الالحاح عليها: التوزع السكاني غير المنتظم، والهجرة من البادية إلى المدينة، وانتشار الأمية"[4].

إن الفعل السحري والأسطوري للثقافة الجديدة ، فرض تحولا عميقا في بنية الأسرة حتى داخل تربته الغربية، وهو تحول سوسيولوجي عميق، مسّ بشكل قوي التفاعلات الاجتماعية، وكذلك العلاقات بين الأفراد، وهو أمر انعكس بسلبياته المتعددة على المجتمع الغربي، المساهم والمنتج الأصلي لهذه الثقافة المعلوماتية الجديدة .

هذا الوضع المعقد داخل المجتمع الغربي بحركيته وفعاليته، فتح نقاشات علمية وأكاديمية تتسلح بالعلم السوسيولوجي، لتجاوز هذا القلق النظري وخلق سياقات جديدة لإعادة مواكبة أوضاع هذه الثقافة الجديدة. فالأمر هنا يتطلب بناء تصورات منهجية وديداكتيكية لمفهوم المدرسة والجامعة الجديدتين، من خلال إقحام آليات الثقافة الجديدة في البرامج التعليمية.

لقد استدعى هذا التفاعل الاجتماعي في أوربا، نتيجة التحولات الاجتماعية، المصاحبة للثقافة المعلوماتية الجديدة، منذ نهاية القرن الماضي، إعادة النظر المستمر في التعليم والتربية، وتكييف الأوضاع الجديدة لهذه الثقافة مع تحول الإنسان الجديد هو الآخر لكائن استهلاكي لواقع هيمنة سلطة الصورة، وصخب الحياة الاجتماعية، التي أفرزت تمزقا في بنية الأسرة والقيم والمرجعيات.

هذا الأمر المقلق والمشحون بالتوترات الاجتماعية في المجتمع الغربي، حسب Robert Pelloux، [5]، ساهم في تراجع قيم المواطنة والحداثة السياسية.

إن هذا التمزق الاجتماعي الذي صاحب ميلاد الثقافة الجديدة في أوربا انتقل إلينا بشكل متسارع، يحمل أخطارا تهدد لغتنا العربية وهويتنا الإسلامية، كمجتمع تابع، مستورد ومتلق لهذه الثقافة المعلوماتية. فأوضاعنا التعليمية هشة، ومدارسنا وجامعاتنا تعاني بشكل خطير من غياب المقاربات السوسيولوجية للتحولات الاجتماعية المصاحبة بشكل طبيعي لبنية الأسرة ، الفرد، المجتمع العربي : " وأخيرا فإن التوازن مفقود بين واجب التجديد وواقع الجمود في التربية العربية. ففي الوقت الذي تغيّر فيه التكنولوجيا عالم العمل فإن المدرسة العربية لا تزال ثابتة كما لا تزال التربية العربية جامدة متصلبة تحبس نفسها في حذاء صيني بدون أن تضع نفسها أبدا موضع تساؤل وبدون أن تنفتح على الاتجاهات التربوية الحديثة التي لا تريد الأخذ بالتكولوجيا في التربية فحسب ، بل تريد تطوير تكنولوجيا تربية الذات[6] .

إن الأخطار المصاحبة لهذه الثقافة الجديدة على اللغة / الهوية العربية، تتطلب وقفة تأملية ونقدية لأوضاع التعليم في الوطن العربي، تستحضر إعمال النظر الأكاديمي واستثمار لعلوم إنسانية متعددة : كالسوسيولوجيا وعلم النفس المعرفي، والأنتروبولوجيا الثقافية، من أجل مواجهة هذه الأخطار المحذقة بأجيال الثقافة الجديدة، من أطفال وشباب المدارس والجامعات.

وهذا الأمر أوجهه كدعوة متواضعة لمؤتمرنا العلمي الثالث، متمنيا تسجيله كتوصية، وفتح نقاش هادئ حول اللغة العربية والثقافة المعلوماتية الجديدة في مدارسنا وجامعاتنا.

وكخلاصة عامة لتجميع عناصر المعادلة : اللغة/ الهوية/ الثقافة الجديدة، لا أخفي صعوبة تفكيك عناصر المعادلة من جهة، وكذلك صعوبة الإحاطة الكافية بالعناصر الإشكالية التي تولّد معها. ميلاد مناخ الثقافة الجديدة ، من عناصر: القلق النفسي، التوتر بكل تجلياته، في مواجهة عنصر التأمل الهادئ، لتفكيك سؤال هذه الثقافة.

إن الأمر جد متداخل مع عناصر الزمن الجديد، المتسم أولا بالشرخ الكبير الذي أصاب الأسرة، فهذا المستوى السوسيولوجي، هو ما يستدعي في نظري، فتح نوافذ جديدة لاستثمار إيجابي لعناصر الثقافة المعلوماتية الجديدة. وثانيا إعادة بناء مفهوم الهوية الجديد من خلال

الانقلابات الكبرى للتفاعلات الاجتماعية، فالأمر هنا يتطلب الاشتغال المشترك بين ذواتنا والآخر، على تحقيق بناء توازنات جديدة لعلاقات: الفرد ، المجتمع، تستحضر مجريات التحولات البنيوية للأسرة على المستوى السوسيولوجي، فالضغط والقلق النفسيين نعيشهما جميعا في عالمنا العربي، وكذلك في الغرب، فتفكيك بنية الأسرة يشكل تحديا خطيرا للمفهوم الكلاسيكي لعلاقة اللغة بالهوية.

لم تعد الأمور في زمننا المعاصر تطرح إشكالية اللغة/ الهوية بنفس المستوى الكلاسيكي، الذي كان سائدا في القرن الماضي، فالعولمة طوعت عنصر اللغة. أمام تحديات التطور المدهش للثورة الإبستيمولوجية . وهو ما يستدعي فتح أسئلة جديدة عن طريق تدبير جيد لاستثمار عناصر الثقافة المعلوماتية من خلال وضع تصورات جديدة ، تستحضر خطورة ووحشية استغلال عناصر هذه الثقافة في إبادة مقومات أساسية للهوية خصوصا المقوم الأخلاقي، الذي ارتبط بشكل جوهري بتفكيك مفاهيم: الأسرة – اللغة – الحرية – المواطنة.

ماذا عسى أن أختتم به مداخلتي ، سوى دعوة كل المشتغلين على حماية اللغة العربية، وعلى رأسهم مؤسسة المجلس الدولي للغة العربية، الذي يمتلك عمقا علميا وأكاديميا لتشريح الأزمة من خلال الاستثمار الجيد والموفق لعناصر ثقافة الانترنت التي فرضت علينا رغم أنوفنا.

الهوامش:

1_ عبد الله العروي : من ديوان السياسة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، البيضاء، 2010.

2_ محمد سبيلا: دفاعا عن العقل والحداثة، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2003.

3_ نظرا لغياب مراجع أكاديمية حول تأصيل قيم المواطنة، أقترح الرجوع إلى المراجع التالية:

_ Alain Renaut : Histoire de la philosophie. Tom 2 la Naissance de la modernité, ed ; calman-levy, 1999.

_ Bertrand Badie et Pascal Perrineau :Le citoyen , ed ; Presses de sciences PO . 2000.

_ Dominique SHnapper : Qui' est ce que la citoyennèté : ed, Gallimar , 2000.

_ Dominique SHnapper : la communauté des citoyens sur l'idée moderne de nation, ed ; Gallimard, coll « NRF essais » 2003.

4_ محمد عابد الجابري : العرب والغرب على عتبة العصر التكنولوجي، مجلة الفكر العربي الماصر، العدد 32، 1984.

5_ Robert Pelloux : le citoyen devant l'etat : ed, P .U .F . Paris .1966.

6_ جورج طرابيشي: الخريطة التعليمية للوطن العربي ، مجلة الوحدة ، العدد 14، نونبر، 1985.